رابعاً - نظرية البنائية الوظيفية :

إن فكرة البناء لمجتمع ما كمصدر لاستقراره لاتعد جديدة كفلسفة اجتماعية، فـ «أفلاطون» فى جمهوريته يطرح القياس بين المجتمع والكائن العضوى، فكلاهما يعنى نظاماً من أجزاء مرتبطة فى توازن ديناميكى. وفى المجتمع المثالى الذى وصفه «أفلاطون»، تقوم كل فئة من المشاركين فى هيكل اجتماعى بإنجاز الأنشطة التى تساهم فى تحقيق التناسق الاجتماعى العام. وقد أثرت هذه الفكرة العامة فى الفكر الغربى وأصبحت هى الإطار المركزى لتحليل علماء الاجتماع الأوائل. وقد جعل «أوجست كونت» من القياس العضوى أساساً لمفاهيمه عن المجتمع. كذلك نظم «هربرت سبنسر» فلسفته الاجتماعية كلها حول نفس الفكر. وقد طور أوائل علماء الاجتماع المعاصرين مثل : إميل دوركايم هذا التوجه فى نهاية القرن التاسع عشر، وأصبحت فكرة أن المجتمع نظام ديناميكى من الأنشطة المتكررة فكرة هامة أيضًا فى تحليل المجتمعات البدائية من جانب علماء أصل الإنسان «الأنثروبولوچى» أمثال : «برونيسلاف مالينوفسكى» وبعده «راد كليف براون». وفى العصور الأحدث استمرت مجموعة الافتراضات الخاصة بالمذهب البنائى تلعب دوراً مهمًا فى تطور مناقشات علم الاجتماع الحديث من خلال كتابات «روبرت ميرتون»، و«تالكوت بارسونز» وكثيرين غيرهما.

ويشير مصطلح «بناء» Structure إلى الطريقة التى تنظم بها الأنشطة المتكررة فى المجتمع. والواقع أن السلوك الأسرى، والنشاط الاقتصادى،

والنشاط السياسى، والعقيدة، والسحر، وغيرها من أشكال الأنشطة المجتمعية، تعد على درجة عالية من التنظيم من وجهة النظر السلوكية.

ويشير مصطلح «وظيفة» Function إلى مساهمة شكل معين من الأنشطة المتكررة فى الحفاظ على استقرار وتوازن المجتمع.

وقد قام «روبرت ميرتون» (١٩٥٧) بتلخيص العملية البنائية الوظيفية للمجتمع فيما يلى:

١- إن أفضل طريقة للنظر إلى المجتمع هى اعتباره نظاماً لأجزاء مترابطة. وأنه تنظيم للأنشطة المرتبطة والمتكررة والتى يكمل كل منها الآخر.

٢- يميل هذا المجتمع بشكل طبيعى نحو حالة من التوازن الديناميكى. وإذا حدث أى نوع من التنافر داخله، فإن قوى معينة سوف تنشط من أجل استعادة التوازن.

٣- تساهم جميع الأنشطة المتكررة فى المجتمع فى استقراره. وبمعنى آخر، فإن كل النماذج القائمة فى المجتمع تلعب دوراً فى الحفاظ على استقرار النظام.

٤- إن بعض الأنشطة المتكررة فى المجتمع لاغنى عنها فى استمرار وجوده، أى أن هناك متطلبات أساسية وظيفية تلبى الحاجات الملحة للنظام، وبدونها لايمكن لهذا النظام أن يعيش. (دوفلور وروكيتش ١٩٩٣: ٦٥ - ٦٧).

وإذا طبقنا الافتراضات السابقة على الاتصال الجماهيرى، نلاحظ أن وسائل الإعلام تقوم بأنشطة متكررة ومتماثلة فى النظام الاجتماعى، وتساهم فى تحقيق التوازن الاجتماعى لهذا المجتمع. وبمعنى آخر تترتب عليها نتائج بالنسبة للمجتمع ككل.

وهكذا يمكن القول بأن وسائل الإعلام تعد من المكونات الأساسية التى لا غنى عنها فى البناء الاجتماعى، ولا يستطيع المجتمع المعاصر - بالشكل الذى نعرفه - أن يستمر بدون هذه الوسائل. ومن ناحية أخرى فإن وسائل الإعلام يمكن أن تكون أحد عوامل الخلل الوظيفى Dysfunctional، وذلك حين تساهم فى التنافر وعدم الانسجام بدلاً من الاستقرار إذا كان تأثيرها على الناس هو الإثارة والتحريض على ممارسة أشكال السلوك المنحرف. (دوفلور وروكيتش ١٩٩٣: ٦٥ - ٦٧).

ومن الواضح تماماً أن وسائل الإعلام غدت فى الوقت الحالى جزءاً مركزيًا من هياكل مؤسساتنا، وهذا يعنى أنها فى الوقت الذى تمثل فيه صناعات قائمة بذاتها، تغلغلت بعمق داخل كل مؤسسات المجتمع الأخرى. وعلى سبيل المثال: فإن وسائل الإعلام - من خلال تركيزها على الخدمات والمنتجات الصناعية- تعتبر جزءًا أساسيًا من المؤسسة الاقتصادية، ومن خلال قيامها بدور متزايد فى عملية الانتخابات أصبحت جزءًا من المؤسسة السياسية، وقد أدى تركيزها الشديد على المواد الترفيهية والثقافة الشعبية إلى اعتبارها عاملاً مهمًا فى بناء الأسرة، ويرى الكثيرون أنها أصبحت جزءًا مهمًا من المؤسسات الدينية والتعليمية. وتهتم هذه المؤسسات الإعلامية بالتوازن والاستقرار أكثر من اهتمامها بالتحول والتغيير.

منظور التحليل الوظيفى : Functional Analysis

يهتم مفهوم الوظيفية Functionalism بتحليل العلاقة بين النظام ككل Organismوالوحدات المكونة لهذا النظام Organs . وترجع جذور هذا المصطلح إلى العلوم البيولوجية والاجتماعية والسلوكية، ففى علم البيولوجيا مثلاً يعتبر جسم الإنسان نظاماً كليًا يحتوى على مجموعة من الأعضاء، ويقوم

كل عضو بدور مهم فى حياة النظام ككل، ويرتبط كل عضو أيضا بالأعضاء الآخرين داخل النظام. ويتضمن مفهوم الوظيفية فى النظام الاجتماعى مجموعة من الوحدات Units، والوحدة يمكن أن تكون الفرد أو المؤسسة الاجتماعية أو الثقافية، وتمارس هذه الوحدات مجموعة من الأنشطة Activities مثل: الاستهلاك، نقل الأخبار، الترفيه . . سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو المجتمع العام، وتتم ممارسة هذه الأنشطة داخل بناء Structure مثل النظام الليبرالى أو النظام الشمولى، وينتج عن ممارسة الأنشطة التى تقوم بها الوحدات داخل البناء مجموعة من الوظائف Functions أى آثار مرغوبة مثل : دور السلوك الفردى والجماعى فى الحفاظ على البناء الاجتماعى، والربط بين آثار هذا السلوك واحتياجات البناء الاجتماعى، فمثلاً يؤدى تقديم وسائل الإعلام للأخبار إلى زيادة معلومات الأفراد، ومراقبة البيئة، وتحقيق الترابط الاجتماعى، ونقل التراث الحضارى من جيل لجيل. ومن ناحية أخرى، يشير مصطلح «الاختلال الوظيفى» Dysfunctional إلى الآثار غير المرغوبة التى قد تحدثها وسائل الإعلام مثل أن يؤدى عرض الأخبار إلى زيادة القلق والاضطرابات لدى الأفراد.

ويركز منظور التحليل الوظيفى على طبيعة البناء المجتمعى، وكيف تعمل الوحدات داخل النظام العام. ويمكن النظر إلى النظام العام على نطاق واسع Macro Level باعتبار المجتمع هو النظام الشامل، أو على مستوى ضيق Micro Level بحيث تكون الوسيلة الإعلامية ومحتواها وجمهورها هى النظام العام. وفى كلتا الحالتين يربط التحليل الوظيفى بين التفاعلات التى تحدث فيما بين وحدات النظام، وأثر هذه التفاعلات على النظام ككل.

وبهذا يسعى التحليل الوظيفى إلى فهم دور نمط السلوك أو التأثير الثقافى والاجتماعى فى الحفاظ على توازن النظام وديناميته، ويتم تحليل نشاط الأفراد

فى ضوء أهميته لتنمية النظام العام وصيانته. ويعد دور الوحدات وظيفيًا Functional إذا كان يساعد على استقرار النظام وحفظ توازنه. ويحدث الاختلال الوظيفى Dysfunctional إذا كان السلوك الذى تمارسه الوحدات يخل باستقرار النظام ويعوق تقدمه. (ليلى حسين السيد ١٩٩٣: ٥٨ - ٦٠).

استخدام التحليل الوظيفى فى دراسات الاتصال :

إن تماسك واستقرار وسائل الاتصال الجماهيرية، فى مواجهة تاريخ طويل من الانتقادات يحتاج إلى تفسير. فى البداية تبدو المشكلة بسيطة بشكل خادع ومضلل، فوسائل الإعلام تثير إعجاب الجماهير، وتريد الجماهير نوع المحتوى الذى يحصلون عليه، ولهذا تواصل وسائل الإعلام تقديم هذه النوعية لهم.

لقد أشار عدد كبير من علماء الاجتماع مثل «سكورنيا» إلى عدم دقة هذا التفسير كما هو الحال فى مشكلة البيضة والدجاجة القديمة. وفى أحسن الظروف فإنه من الصعب أن تعرف هل يحدد ذوق الجمهور محتوى وسائل الإعلام؟ أم أن محتوى وسائل الإعلام هو الذى يحدد ذوق الجمهور؟ قد تكون الإجابة مزيجاً من هذا وذاك، لأن كلاً من ذوق الجمهور ومحتوى وسائل الإعلام يمثلان السبب والنتيجة، ذلك أنها علاقة دائرية.

وتقدم نظرية البنائية الوظيفية من خلال منظور التحليل الوظيفى نموذجاً لعلاج هذه المشكلة، حيث يبدأ التحليل بمشاهدة الوسيلة الإعلامية بوصفها نظاماً اجتماعياً يعمل ضمن نظام خارجى معين (أى مجموعة الظروف الثقافية والاجتماعية). ويركز التحليل الوظيفى على ظاهرة متكررة (مجموعة من السلوك) ولتكن محتوى الذوق الهابط داخل هذا النظام (الوسيلة الإعلامية). ويسعى التحليل الوظيفى إلى إيضاح أن لهذه الظاهرة نتائج تساهم فى استقرار

وبقاء النظام ككل. وقد يكون لهذه الظاهرة تأثير إيجابى فيقال إنها «وظيفية» وقد يكون لها تأثيراً سلبيًا فيقال : إن لها «إختلالاً وظيفيًا». والتحليل هو استراتيجية ترمى إلى استنباط أو تحديد افتراض يمكن اختباره تجريبيًا من خلال الدراسات المقارنة أو طرق البحث المناسبة.

محتوى الذوق الهابط كظاهرة متكررة :

يمكن تطبيق التحليل الوظيفى على دراسة وسائل الاعلام للتعرف على ظاهرة المضمون الهابط لتلك الوسائل. نستطيع أولاً أن نحدد هذا الجزء من محتوى وسائل الإعلام الذى يقع ضمن الذوق الثقافى الهابط، أو الذى يعطى إشباعاً للجماهير العريضة بحيث يراه بعض الناس أنه يحط من قدر الذوق مثل : العنف الزائد، وتصوير الأساليب الإجرامية، وموضوعات الرعب والوحشية والبرامج الإباحية، والميلودراما الموحشة، والموسيقى المثيرة، وغيرها من المظاهر التى تثير استياء النقاد. وسوف نفترض أن المحتوى الإعلامى يمكن تقسيمه إلى ثلاث درجات على النحو التالى:

١- **المحتوى الهابط:** وهو الذى يثير استياء النقاد بشكل مستمر مثل : الدراما التليفزيونية التى تؤكد على العنف، أو البرامج الجنسية الفاضحة التى تصل إلى حد الدعارة، أو الكوميديا المسفة ، أو الموسيقى المثيرة، أو أى محتوى يساهم فى خفض الذوق وإفساد الأخلاق أو الإثارة للقيام بسلوك غير مقبول اجتماعيًا.

٢- **المحتوى الذى لايثير الجدل:** ومن أمثلة ذلك : تقارير الطقس، والمجلات التى تركز على الاهتمامات المتخصصة، ولا شك أن هذا المحتوى لايرفع مستوى الذوق ولا يحط من قدره، ولا يهدد المستويات الأخلاقية.

٣- **محتوى الذوق الرفيع:** وهو المحتوى الذى يرقى بالأخلاق والتعليم . .

مثل: الموسيقى الجادة ، والدراما الهادفة ، والمناقشات السياسية.

ويمكن تحديد عناصر النظام الاجتماعى الذى يحدث بداخله مستوى الذوق الهابط فيما يلى:

١- **الجمهور** : وهو العنصر الرئيسى للنظام الاجتماعى الخاص بوسائل الاتصال الجماهيرية، وينقسم الجمهور إلى طبقات اجتماعية متمايزه بينها علاقات متشابكة فى مجالات عديدة. ولابد من تحديد احتياجات أفراد الجمهور، وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراده.

٢- **هيئات البحث** : وهى الجهات التى تقدم معلومات للمسئولين عند انتقاء أنواع المحتوى الذى سيوزع على الجمهور.

٣- **الموزعون** :حيث ينتقل المحتوى - مهما كان نوعه - من موزع إلى الجمهور.

٤- **المنتجون والممولون** : وهناك مجموعة كبيرة من الأنظمة الفرعية ضمن عنصر المنتج، ومن أمثلة ذلك : الممثلون والمخرجون والمراسلون ورؤساء أقسام الأخبار وغيرهم.

٥- **وكالات الإعلان** : ويرتبط الممول والموزع والمخرج وهيئة البحث بوكالات الإعلان.

٦- **نظم الرقابة** : مثل الهيئات التشريعية التى تضع اللوائح التنظيمية الخاصة بوسائل الإعلام.

وتتفاعل العناصر السابقة فى تحديد المحتوى المسموح والمحتوى غير المسموح، وتندرج كل واحدة من وسائل الإعلام ضمن هذا النموذج العام من النظام الاجتماعى. ومن الطبيعى أن يمثل التمويل الشرط الأساسى لهذا

النظام، فمعظم مكونات نظام وسائل الإعلام عبارة عن عناصر وظيفية يحرك المال أفرادها، ولكى يحصلوا على المال فإنهم يعتمدون على أكثر العناصر أهمية وهو الجمهور. وإذا لم تكن قراراتهم لصالح الاهتمام بالجمهور والشراء وما أشبه ذلك مما يثير إعجاب الجمهور، فإن نظام الوسيلة الإعلامية قد يعانى من إجهاد شديد يجعله ينهار فى النهاية ، لذلك يختار القائمون على الوسيلة الإعلامية التى تعمل وفق النظام التجارى تقديم المحتوى الترفيهى الذى يشبع أكبر عدد ممكن من أفراد الجمهور ويقنعهم بشراء السلع والخدمات المعلن عنها. والمحتوى الترفيهى الذى يبدو أنه قادر على جذب أكبر عدد من أفراد الجمهور هو ذلك المحتوى الهابط الأكثر درامية. ونظراً لأن الهدف الأساسى لوسائل الإعلام التجارية هو تحقيق الربح الاقتصادى، فإن الجنس والعنف وأى محتوى آخر يثير الاهتمام - حتى لو كان متسماً بالذوق الهابط - سوف يؤدى إلى زيادة عدد الجمهور الذى يشاهد الإعلانات، وبالتالى يحقق أهداف النظام. (دوفلور وروكيتش ١٩٩٣: ١٨٥ - ٢٠٥).